مميزات المنظومة الأخلاقية للإمام بديع الزمان سعيد النورسي

الملخص

د. يوسف محمد الندوي[1]

تميّزت المنظومة الأخلاقية في رسائل النور للأستاذ سعيد النورسي بتمثّلها لمنزلة الخُلق في الإسلام، فامتازت بالفطرية، وهي ثمرة من ثمرات الإيمان، وهي عنوان التدين الكامل، وبهذا تواجه هذه المنظومة الأخلاقية المنظومة المبنية على القوة لما فيها من اعتداء وظلم، وتعلّق بالمنفعة، ومنظومة هذا شأنها أن تتأسّس على التدافع والتزاحم، ودستورها في الحياة الجدل، وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام، رابطتها فيها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية، وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب، خدمتها الجذابة هي تطمين وتشجيع الهوى والهوس، وهذا كلّه يؤكّد على علمية وواقعية، وانتظام وانسجام المنومة الأخلاقية النورسي.

الكلمات المفتاحية: رسائل النور، والنظام الأخلاقي، بديع الزمان سعيد النورسي.

* * *

The Distinguishing Features of the Moral Order according to Imam Bediuzzaman Said al-Nursi

ABSTRACT

Dr. Yusuf Muhammad al-Nadwi

The moral system in the Risale-i Nur is distinguished by representing the ethical level of Islam whic was characterized by instinct, which is one of the fruits of faith, and is the title of complete religiosity. In this way, this moral system confronts the system based on force, aggression and injustice, and its attachment to materialistic benefit And such a system like that would be based on aggressive competition and jostling, and its constitution in life is controversy, and this hence leads to conflict and strife. Its association between the blocs is racism and negative nationalism, and this leads to a terrible collision. Yet the attractive service of belief is to reassure and encourage higher passion and service, and this all affirms scientific, realistic, regularity and harmony of the moral system of Said Nursi.

Key words: Risale-i Nur, The Ethical System, Bediuzzaman Said Nursi.

* * *

تمهيد

الخلق في اللغة: بضم اللام وسكونها وهو الدِّين والطبْع والسجية وحقيقته أَنه لِصورة الإنسان الباطنة وهي نفْسه وأَوصافها ومعانيها المختصةُ بِها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها ولهما أَوصاف حسَنة وقبيحة والثوابُ والعقاب يتعلّقان بأَوصاف الصورة الباطنة أَكثر مما يتعلقان بأَوصاف الصورة الظاهرة.[2]

الأخلاق في الإسلام هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني ، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم،

منزلة الخُلق في الإسلام:

الخلق هو جوهر الإسلام ولبه وروحه السارية في جميع نواحيه، إذ النظام الإسلامي - على وجه العموم -مبني على مبادئه الخلقية في الأساس، بل إن الأخلاق هي جوهر الرسالات السماوية على الإطلاق. كما يتضح ذلك من قول الرسول يقول: ''إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق''[3] فالغرض من بعثته هو إتمام الأخلاق، والعمل على تقويمها، وإشاعة مكارمها ، بل الهدف من كل الرسالات هدف أخلاقي، والدين نفسه هو حسن الخلق.

اعتنت رسائل النور للأستاذ النورسي رحمه الله بالنواحي الأخلاقية فكانت موضوعا مهما فيها، نستطيع اعتبارها منظومة أخلاقية استنبطها الأستاذ النورسي من الكتاب المبين والسنة المطهرة، فهي فى الحقيقة منظومة أخلاقية قرآنية متكاملة تتسم بالعموم والكلية والشمول والنسقية والأصالة والترابط والانسجام وفق ما يستجيب لحاجات المجتمع، وتقوم هذه المنظومة على مجموعة من المبادئ العلمية والقوانين الكلية الفطرية،

وقد يسّر لهذا المسلك الأخلاقي أن يتأسس على يد الأستاذ النورسي، الذي ما كان له أن يحقق هذا المقصد لو لم يكن رجلا قرآنيا، اتبع منهج القرآن في حياته ومعاشراته ومعاملاته ، كما كانت أخلاقه أخلاقا قرآنية، هذا هو خير وصف اتصف به سيدنا محمد في حديث رواه عن بن عامر قال أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله قالت كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل

وإنك لعلى خلق عظيم قلت فإني أريد أن أتبتل قالت لا تفعل أما تقرأ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.[4]

ويظهر للمطلع الحصيف على رسائل النور أنها منجم لمبادئ لمنظومة أخلاقية متكاملة، لعلّ من أهمها الفطرة والإيمان والشمول والتدريج والنسبية والواقعية والتناسب والانسجام. وهو ما سأتوقّف عند عرضا وتحليلا.

1- الفطرة

الفطرة ما يخص طبيعة الكائن ويصاحبه منذ نشأته، ومنه الأفكار الفطرية، وهي التي لم تستمد من التجربة، ويقابل الفطري المكتسب، والفطرة بعبارة أخرى هي الخلقة بدليل قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾.[الروم:30]

والأخلاق فطرة في الإنسان في كما أوردها الأستاذ النورسي في رسائل النور، أي أنّها كامنة في بنيته وخلقته، وأنها مقوم أساسي من مقومات ذاتيته وهويته، يشهد لهذا المعنى قوله: "ما دام الميل نحو الكمال قانونا فطريا في الكون وقد أدرج في فطرة البشرية"[5] والأخلاق هي التي تمكن الإنسان من السير نحو الكمال ونحو الأحسن والأفضل ، قال رسول الله : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.[6]

إن التدين والخير والصدق والسعي وسائر الأخلاق الحميدة من فطرة الإنسان، كما قال النورسي في حقّ الإنسان السوي أنّه "مفطور على أن يفضح الكذب، ويقول للكذب هذا كذب" وهو أيضا "مفطور على الارتباط بأبناء جنسه من الناس لعدم تمكنه من العيش بمفرده، وهو مضطر إلى أن يعطي لهم ثمنا معنويا لدفع احتياجاته، لذا فهو مدني فطرة"، إن الصدق باعتباره محور الأخلاق وأساسها المكين ليس مغروزا في فطرة الإنسان وحده، إنه مغروز في فطرة جميع المخلوقات والكائنات، أي في الفطرة الكونية بجميع أنواعها ومكوناتها، وهو ما عبر عنه النورسي بأسلوب بليغ، شاهد هذه المعاني قوله: "إن الفطرة لا تكذب، ففي النواة ميلان للنمو، إذا قال سأنبت وأثمر فهو صادق، وفي البيضة ميلان للحياة، إذا قال سأفرخ، فيكون بإذن الله وهو صادق، وإن ميلان التجمد في غرفة من الماء إذا قال سأحتل مكانا أوسع فلا يستطيع الحديد لصلابته أن يكذبه. إن صدق قوله يدمر الحديد، وما هذه الميول سوى تجليات وتظاهرات لأوامر التكوين الصادق عن الإرادة".[7]

قال النورسي: "الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل، بدليل أن كل علم من العلوم المتعلقة بالكون يطلعنا بقواعده الكلية على أن في كل نوع وفي كل طائفة انتظاما وإبداعا بحيث لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع وأكمل منه (...) فتبين جميعها حقيقة الآية الكريمة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة:7

وقال عن الشر: "الشر والقبح والباطل والسيئات جزئي وتبعي وثانوي في خلقة الكون". فالقبح مثلا في الكون والمخلوقات ليس هدفا لذاته وإنما هو وحدة قياسية، لتنقلب حقيقة واحدة للجمال إلى حقائق كثيرة، والشر كذلك، بل حتى الشيطان نفسه إنما خلق وسلط على البشرية ليكون وسيلة لترقيات البشر غير المحدودة نحو الكمال التي لا تنال إلا بالتسابق والمجاهدة. وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين".[8]

فالأخلاق الحميدة هي القاعدة، والأخلاق الرديئة المذمومة هي الاستثناء، والأخلاق الأولى هي غاية في حد ذاتها وهي السائدة الغالبة في نظام الكون ونظام الكائنات، أما الأخلاق الفاسدة، وإن كانت مركوزة هي الأخرى في الفطرة، فهي جزئية وثانوية، ووجودها إنما كان بقصد التعرف على تجليات الحق والخير والجمال والكمال، وقديما قيل: "بضدها تتبين الأشياء". والدليل على فطرية الأخلاق أن كلمتي الخلق والخلق في اللغة العربية مشتقتان من مادة لغوية واحدة، أي أنهما تنتميان إلى نفس الجذر اللغوي "خ.ل.ق." ومن مشتقات هذا الجذر نذكر: الخلق والخالق والمخلوق والخليقة والخلق والأخلاق... إلخ.

2- الإيمان

تثبيت الإيمان والتقوى في القلوب وإعادة غرسها حال تضييعها في شعاب الحياة بسبب شبه أبالسة البشر وتشويشهم هو السبيل الأنجح لتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس، والدين والأخلاق شيء واحد، فلا دين بغير أخلاق ولا أخلاق بغير دين. لقد دعت الأديان السماوية كلها إلى ضرورة التحلي بالأخلاق الحميدة، إذ الدين شريعة وحقيقة، عبادات ومعاملات، وكل عبادة أو معاملة لها وجهان: وجه فقهي ووجه خلقي، ثم إن العلوم الإسلامية كلها تقوم على الأخلاق من حيث مرجعيتها وفلسفتها ومبادؤها المنظمة لها، ومن حيث غاياتها العلمية والعملية. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. الشمس:9-10

قال الأستاذ النورسي: ''إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين، إن مشربنا: محبة المحبة ومخاصمة المخاصمة، أما مسلكنا فهو التخلق بالأخلاق المحمدية وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة: الشريعة الغراء''،[9] وقال في سياق آخر: ''إن الإيمان يقيم دائما في القلب والعقل حارسا معنويا أمينا، لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية (...) يطردها ويهزمها''[10] وإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرة وتكميلها وتهذيبها. فقد قال ابن تيمية: ''إن الرسل إنما بعثت بتكميل الفطرة، لا بتغيير الفطرة''[11] وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: ''إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.''[12]

وأكّد هذه المعاني في رسائل النور بقوله: ''الكذب لا يسمح به قطعا''... ''إن الكفر بجميع أنواعه كذب، والإيمان إنما هو صدق وحقيقة''[13] هذه ما نراه تفسيرا لما قاله النبي ، لما سئل: هل يزني المؤمن؟ فقال نعم، وهل يسرق أو يقتل؟ فقال: نعم، وعندما سئل: هل يكذب؟ قال: لا. وكلامه يتضمن تفصيلات وتوضيحات قيمة. إن المرجعية القرآنية والحديثية حاضرة في كل أقواله وأفكاره ومؤلفاته، ولا عجب في ذلك، لأن ''رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة''.[14] هذا بخصوص القرآن الكريم، أما فيما يتعلق بالسنة النبوية، فإننا نجد ''في ثنايا كثير من الرسائل أسئلة وأجوبة حول بعض الأحاديث الشريفة التي قد يظن أول وهلة أنه -أي الحديث- بعيد عن الواقع أو لا يسلم به العقل، إلا أن الرسالة تشرح الأبعاد الشاسعة لذلك الحديث وأسراره وحكمه الكثيرة.''[15]

3- الكمال

المنظومة الأخلاقية التي اشتملت عليها رسائل النور تتسم بالكمال والشمول، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بل شملت علاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته. إنها عالجت مجمل الأخلاق الحميدة والسجايا الرفيعة بشكل مفصل مسهب تارة، وبشكل مجمل مقتضب تارة أخرى. وهكذا وجدنا النورسي متحدثا عن إيجابيات الصدق والشورى والعدل والتعاون والأخوة والأمل والتواضع والاجتهاد والوفاء والعفة والمحبة والشكر وغيرها، وخصص لبعضها رسائل مستقلة،

كما أنه نبّه على خطورة الأخلاق الذميمة مثل الكذب والرياء والنفاق والظلم والتفرّق والتعصّب والكِبْر والأنانية واليأس والاستبداد والتكاسل والعداوة والشر والخيانة.

ربطت رسائل النور الأخلاق بالرقي والحضارة والمدنية فالعلاقة بينهما وطيدة، قال الأستاذ: "لما كانت مدنية أوربا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت هيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدينة آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب.[16]

إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة، ولذا فإنها لا تكفل سعادة البشرية. إنها بنيت على خمسة مبادئ سلبية:

1- إنها مبنية على القوة: وهذا يؤدي إلى الاعتداء والظلم.

2- هدفها وقصدها المنفعة: وهذا من شأنه التدافع والتزاحم.

3- دستورها في الحياة هو الجدل: وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام.

4- رابطتها فيها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية: وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب.

5- خدمتها الجذابة هي تطمين وتشجيع الهوى والهوس.

وهذا يمسخ الإنسان روحيا.أما المدنية التي بنيت على أساس التشريع الإسلامي والأخلاق المحمدية الرفيعة، فإنها مبنية على الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدى، وهذا ما يؤدي إلى العدالة والتوازن والمودة والاخوة والمسالمة والاتحاد وترقي الإنسان.[17]

إن المنظومة الأخلاقية التي وضع أسسها النورسي تحمل في كيانها الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمدية، ولذلك اتسمت بالعموم والكلية والشمول. أما الفلسفات والمذاهب الأخلاقية الغربية فقد اتسمت بالجزئية، فأخذ بعضها بمبدأ الفطرة أو الطبيعة "الأخلاق الطبيعية"، واقتصر بعضها الآخر على مبدأ العلم أو العقل "الأخلاق العلمية"، ودعا آخرون إلى الأخلاق الواقعية أو الأخلاق العلمانية.

وكل نظرية أخلاقية اعتمدت مفهوما واحدا. فهل نتبع فلسفة اللذة التي نادى بها أريستيب وأبيقور؟ أم نظرية السعادة التي نظر لها سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون؟ أم فلسفة القوة التي نادى بها نيتشه؟ أم نظرية الواجب عند إيمانويل كانط؟ أم نظرية المنفعة التي دافع عنها بنتام وجون استيوارت مل، وكل الذين تبنوا الفلسفة الذرائعية؟ إن الأخلاق القرآنية، وأيضا المنظومة الأخلاقية النورسية بما هي تفسير للأولى، جاءت شاملة لكل المبادئ، أو لكل الجوانب الإيجابية والمفيدة فيها، ومن ثم شمولها وكماليتها وإحاطتها بكل جوانب الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية. إن المنظومة الأخلاقية عند النورسي لا يمكن أن تبنى على المنفعة الشخصية والأنانية مثلا.

وهو الذي قال: "لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظرا تاريخيا وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط: إحداهما: "إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع" والثانية: "إكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا".[18] والدواء لهاتين الخصلتين الفاسدتين هو الزكاة وحرمة الربا. ويقول أيضا: "إن السياسة المبنية على المنافع وحش رهيب."[19] ولا يمكن أن يبني منظومته الأخلاقية على فلسفة اللذة أو نظرية الواجب أو أي مفهوم جزئي آخر.

4- العلمية

لا يصطدم القرآن الكريم مع العلم الذي يعرف بكلمة إنجليزية Science في نظر الأستاذ النورسي إن القرآن جاء باكتشافات عجيبة عن الكائنات. رغم ذلك أن القرآن لا يعتبرها علوما قطعية لأن أساسها خيالات وظنون ويصل إليها الإنسان الباحث في سبيل البحث والإجتهاد، فلذا يلاحظ الاكتشافات العلمية لا تزال تتجدد وتتبدل عكسا للعلوم القرآنية وهي كلها علوم قطعية تحدث بها الخالق الله عالم السر والنجوى الناس كافة. يرفع القرآن راية الفكر والبحث في طيلته خلال آياته الكريمة ؛ وهو يحث على الدرس والمعرفة وتفهّم نواميس الكون وكشف أسراره.

إن تناول النورسي للأخلاق تناول قرآني ديني وتناول علمي في الوقت نفسه، والدين والعلم لا يتعارضان. ولقد أشارت رسالة "المعجزات القرآنية" كما أوردها الأستاذ في رسائل النور إلى: "كل آية من الآيات التي تعرض لها أهل العلم الحديث، وأظهرت أن في كل منها لمعة رائعة من لمعات إعجاز القرآن، وبينت ما ظنه أهل

العلم مدار نقد في جمل القرآن وكلماته: أن في كل منها الحقائق السامية الرفيعة ما لا تطاوله يد العلم" ... "نحن معاشر المسلمين خدام القرآن نتبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلبنا حقائق الإيمان، لسنا كمن ترك التقلد بالبرهان تقليدا للرهبان كما هو دأب أتباع سائر الأديان."[20]

وبناء على سلف كانت رسائل النور مصوغة صياغة علمية منطقية راعت عقلية متلقي هذا الزمان، فاستثمر الأستاذ النورسي العلوم الحديثة في رسائله. لقد وجدناه يصوغ بعض الحقائق المتعلقة بالصدق والكذب، صياغة منطقية رياضية معتمدا مفاهيم من قبيل اللزوم أو الاستلزام Implication والتناسب والمقايسة والتمثيل والقياس والبرهان وغيرهما.[21]

5- النسبية

يتجلى توظيفه لهذا المبدأ في أماكن عديدة ومتفرقة من رسائل النور، ووجدناه يعتمده أيضا في دراسة الأخلاق، ولذلك اعتبرناه مبدأ من المبادئ التي تقوم عليها منظومته الأخلاقية. قال النورسي: "إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نـزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع..." "وحيث إن الحسن النسبي والخير النسبي كثير جدا".[22] ومعلوم أن النسبية من المبادئ العلمية التي أصبح الآن مسلما بها من قبل الجميع، ومأخوذ بها في جميع المجالات العلمية والفكرية والثقافية. فالإبستمولوجيا المعاصرة وفلسفة العلوم تقوم على مفاهيم ومبادئ مثل النسبية والنسقية والتدريج والانسجام والانتظام، بل إن ظواهر الكون برمتها تخضع لهذه المبادئ والقوانين.

6- الواقعية

وظّف الأستاذ النورسي هذا المبدأ، مثلا، في معالجة عدد كبير من القضايا الفكرية والأخلاقية، ويمكن أن ندعوه أيضا بمبدأ السياق، ومفاده أنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف والسياقات وتنوعها، فلكل سياق حكم ولكل مقام مقال.

ويمكن أن نستشهد هنا بالنص الذي قال فيه الأستاذ: "عليك أن تصدق في كل ما تتكلمه ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا، عليك أن تقول الحق في كل ما تقول ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصا فقد يؤثر تأثيرا سيئا فتضع الحق في غير محله".[23]

ونجده يأخذ بهذا المبدأ عندما يجعل الخيار قائما بين الصدق والسكوت فقط، ويرفض أن يكون هناك حل ثالث، والذي هو الكذب ولو كان الكذب للمصلحة.

قال: "لا نجاة إلا بالصدق، فالصدق هو العروة الوثقى. أما الكذب للمصلحة فقد نسخه الزمان، ولقد أفتى به بعض العلماء مؤقتا للضرورة والمصلحة، إلا أن في هذا الزمان لا يعمل بتلك الفتوى، إذ أسيء استعماله إلى حد لم يعد فيه نفع واحد إلا بين مائة من المفاسد".[24]

7- مبدأ الانتظام والانسجام

يدخل في هذا المبدأ عدة مفاهيم ومصطلحات من قبيل التناسب والترابط والتسلسل والوفاق والانتظام والنظام وغيرها. وهذا ما دفعنا إلى افتراض وجود منظومة أخلاقية في رسائل النور تتسم بالشمول والنسقية والانسجام.

اعتمد النورسي هذا المبدأ في دراسته للأخلاق، وفي هذا المقام قال: "إن آثار محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته وتاريخ حياته تشهد –مع تسليم أعدائه– بأنه لعلى خلق عظيم، وبأنه قد اجتمع فيه الخصائل العالية كافة. ومن شأن امتزاج تلك الأخلاق توليد عزة للنفس وحيثية وشرف ووقار لا تساعد التنزل للسفاسف. فكما أن علو الملائكة لا تساعد لاختلاط الشياطين بينهم، كذلك تلك الأخلاق العالية بجمعها لا تساعد أصلا لتداخل الحيلة والكذب بينها، ألا ترى أن الشخص المشتهر بالشجاعة فقط لا يتنزل للكذب إلا بعسر، فكيف بالمجموع؟ فثبت أن ذاته عليه السلام كالشمس دليل لنفسه".[25] فالأخلاق الرفيعة تنسجم مع بعضها البعض، وتشكل كلا منسجما موحدا.

وما قاله النورسي عن الأخلاق هنا، هو ما قدمه على شكل مبدأ عام في النص التالي: ''.كما يوجد الميل والجذب في الأمور المتناسبة، كذلك يوجد الدفع والتنافر في الأمور المتضادة''.[26] فلما كان الصدق إيمانا والكذب كفرا، أي كانا متضادين ومتناقضين تباعدا وتدافعا: ''وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بعد ما بين المشرق والمغرب. ولا ينبغي أن يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار (...) إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان''. ولكن لما ابتعد الناس عن الفطرة والأخلاق الحميدة، اختلط الصدق والكذب، وأعطت الدعايات السياسية رواجا كبيرا للكذب وأفسحت له المجال فبرز في الميدان، ووجدنا من ينظر للكذب ويعتبره ظاهرة لغوية ونصية، أي ظاهرة طبيعية.

إن العمل بمبدأ الانتظام جعل النورسي ينظر إلى الأخلاق باعتبارها علما وعملا، فكرا وسلوكا، يقول: ''نريد أن تصدقوا قولكم بفعلكم... ''لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا''.[27]

وهو يعتبر الصدق محور الأخلاق والخيط الناظم لها قال: ''إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بالجدية، وإن إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هو الصدق. ولو ارتفع الصدق من بينها صارت كهشيم تذروه الرياح''.[28] هناك مبادئ أخرى تقوم عليها المنظومة الأخلاقية عند النورسي مثل مبدأ التدريج ومبدأ القدوة والتأسي بالرسول ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.الأحزاب:21 ولكن نكتفي بما أوردناه.

لقد ركزنا فيما سبق على دراسة النورسي للأخلاق وتنظيراته التي تضمنتها كليات رسائل النور، والتي نتج عنها منظومة أخلاقية قرآنية فريدة، ونريد أن نشير إلى أن الأخلاق القرآنية انعكست أيضا في سلوكه هو، وفي أخلاقه وأفعاله. إنه رجل صدق ما عاهد الله عليه فبورك له في عمله وجهاده وتأليفه، وكان له تأثير حميد في طلبته وأبناء قومه، وأيضا في العالم العربي والإسلامي. لقد كتب الأستاذ محسن عبد الحميد بهذا الصدد: ''إن من لا يصاحب طلبة النور ولا يخالط أجيالهم الشابة في إيمانهم العميق وهدوئهم البريء، وأخلاقهم العالية البديعة، ودروسهم الإيمانية المطهرة، لا يعلم مدى عمق أثر الإمام النورسي في تربية الجيل الجديد على حب الله ورسوله، ثم حب العلم والفكر والعرفان والتغيير''.[44] والحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش

[1] أستاذ المساعد، كلية دار الأيتام المسلمين بويناد

[2] محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت، 10 / 85

[3] السنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث 43/10

[4] مسند أحمد، رقم الحديث: 23460

[5] الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم، الأحمدية للنشر، ص: 39.

[6] صحيح البخاري، رقم الحديث: 1296

[7] نوايا الحقيقة، نشر بذيل الخطبة الشامية، ترجمة عاصم الحسيني، ص:97، وانظر كذلك: المكتوبات: نوى الحقائق، ترجمة إحسان قاسم، ص: 601.

[8] الخطبة الشامية، طبعة إحسان قاسم، ص: 39-40.

[9] الخطبة الشامية، طبعة إحسان قاسم، ص: 85.

[10] والمرجع نفسه:73

[11] ابن تيمية: منهاج السنة: 82/1.

[12] السنن الكبرى للبيهقي: 10 / 192

[13] الخطبة الشامية، ص: 50.،46

[14] الملاحق – قسطموني، ص: 220.

[15] إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره ص: 200.

[16] الخطبة الشامية، ص: 38.

[17] المكتوبات، نوى الحقائق، ص: 606-607، ونوايا الحقيقة المنشور بذيل الخطبة الشامية، j عاصم الحسيني، ص: 110-111.

[18] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 67-68.

[19] الخطبة الشامية، طبعة عاصم الحسيني، ص: 103.

[20] الخطبة الشامية، ص: 30، 32.

[21] إلمام الأستاذ النورسي بعلم المنطق جعله يوظف مصطلحات منطقية كثيرة يستعصي حصرها، ثم إنه ألف كتابين في الموضوع هما: (قزل إيجاز) و(تعليقات على برهان الكلنبوي في المنطق).

[22] صيقل الإسلام، السانحات، ص: 333.، 33

[23] الخطبة الشامية، ص: 50.

[24] الخطبة الشامية، ص: 49.

[25] إشارات الإعجاز، ص: 166-167.

[26] إشارات الإعجاز، ص: 166.

[27] صيقل الإسلام، المناظرات، ص: 427.، الخطبة الشامية، ص: 27.

[28] إشارات الإعجاز، ص:166.